مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (٣٤)، ع (١)، ص ص: ٣٤٩ – ٣٧٣ (٢٠٢٦م)
DOI: 10.4197/Art.34-1.12

بلاغة العتبات النصية في كتاب "استنشاق نسيم الأنس" لابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ): دراسة تحليلية في العنوان والمقدمة

أمينة بنت سعود بن خيشان القرشي

أستاذ البلاغة والنقد المشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الباحة، الباحة، المملكة العربية السعودية

aalqurashy@bu.edu.sa

المستخلص: يهتم موضوع العتبات النصية بدراسة الجانب اللغوي والفكري لابن رجب في كتاب (استنشاق نسيم الأنس)، ويتطلب النظر في تكوينه اللغوي والعلمي من خلال نتاجه في مجالات العلم وفنونه؛ مما أورثه مخزونًا علميًّا يستحق الدرس، ودراسة الجانب الدلالي في صناعة العنوان والمقدمة؛ حيث التركيب والترتيب للأفكار والمعاني، وسبكها في خطاب بلاغي إقناعي، يحقق في النص أبعادًا، ويُحدث ترابطًا، ويُنتج معانٍ، ويُبني وظائف إبلاغية تواصلية بين المتلقين، ومن أهداف الموضوع: إيضاح الوظائف التواصلية للأساليب البلاغية، ودورها في بناء الصور، وإيصال المعاني، والكشف عن فنّية العنوان والمقدمة، ودورهما في تحقيق المقاصد التي يحملها الخطاب، وقام على المنهج البلاغي في تحليل عتبة العنوان والمقدمة، وما فيهما من أساليب ذات دلالات معنوية، وقيم توجيهية، وانفعالات نفسية، وكشف دورها في السياق، وأثرها على المتلقي، ومن النتائج التي توصل إليها: أن فنّية العنوان والمقدمة لا تحجب عن الخطاب مقاصده وغاياته، بل تُساهم في تحقيق الوظيفة الإبلاغية التواصلية من الفهم والإفهام، وما يتصل بهما من تلقٍّ، وتأثير، واستمالة، وقد اتفق لابن رجب – بما يمتلكه من مقومات – أن يسلك مسلكًا لا يعتريه غموض في أداء المعاني، وهذا فقه جدير بالمفاتشة، حقيق بالدرس والمكاشفة، فلأسلوبه محاسن جمة تستحق النظر، فبها تكون البلاغة مصدرًا للتأثير، وطريقة توصيل وقبول.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، العتبات النصية، ابن رجب، استنشاق نسيم الأنس، دراسة تحليلية.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن صناعة العنوان وخطاب المقدمة من أجلّ الركائز التي ارتبطت عند العلماء بحسن الابتداء، ومراعاة التأنق في نظمها؛ لكونها أول ما يقرع السمع، فيُقْبل السامع على الكلام فيعيه (مطلوب، ١٩٨٣،

٢١/١)، ولعظم شأن المقدمات، يقول الجاحظ: "ينبغي لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلّا على أن النّاس له أعداء، وكلّهم عالم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلًا، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنّ لابتداء الكتاب فتنةً وعجبًا" (الجاحظ، ٢٠٠٣، ٦٠/١)، وهذه الخصوصية تجعلها متفردة بنسق معين، يضّم مقاصد المتكلم، ودواعي تأليفه، وتخيّر نظمه؛ مما يُوجب أن يكون لـ"مطلع الكتاب جدَّة ورشاقة" (ابن الأثير، ١٤٢٠، ص٨٧).

فالعنوان والمقدمة هما نتاج محصول تجربة المبدع؛ إذ ينظم في تراكيبهما قيمًا إبداعية، ونفسية، يشحن في صياغتهما طاقات فكرية، وتواصلية تُحدِّد مضمون النص، وتُلزِم القارئ بالإصغاء، وتحقق التأثير والقبول، من هنا ظهرت عناية العلماء بعناوين المؤلفات ومقدماتها، وبنائها بناءً فنيًّا بديعًا في اللفظ والمعنى.

أهمية البحث:

أولًا: النظر في هندسة ابن رجب لمقدمة كتابه (استنشاق نسيم الأنس)، ففي المقدمة من الثراء الدلالي ما يفتح للدارس آفاق النظر، ويستوجب التتبع، والإبانة في الصياغات، وطرق الورود؛ لمحاولة كشف الدور الوظيفي في ثراء الأفكار ورسمها بنسق مخصوص، في علاقات ترابطية منطقية تجمع بين حسن الألفاظ، ودقة اختيارها.

ثانيًا: بيان أهمية المقدمة وفعاليتها في توجيه طرائق التعبير لدى الكاتب، ومفاتح التلقي لدى المستمعين، فلا يتحقّق للمقدمات جوهر إلا بتأثيرها في النفوس، فقد تخيّر ابن رجب في صياغتها أجود الألفاظ وأشرفها؛ مما كان ذا فضل عليّ في سياقه ومقامه ... فهذه دواعٍ وأسباب دفعت لدراسة: **بلاغة العتبات النصية في كتاب (استنشاق نسيم الأنس) لابن رجب الحنبلي ٧٩٥هـ: دراسة تحليلية في العنوان والمقدمة.** فصاغ في مقدمته الأصول المنهجية السليمة لمعرفة الطرائق الصحيحة في تلقي الحب الإلهي، فوضع الآليات التي تُبنى عليها سعادة المرء في الدارين، وعليه حسن اتباعها وامتثالها، والوعي التّام بمقتضياتها، والبحث يقوم حول خاصيةٍ معرفيةٍ تتمركز في: إيضاح البنية العميقة للنغمة الموسيقية في تمازج الأساليب، إلى جانب تمركز الدلالة داخل النسق اللغوي للعنوان والمقدمة، فلا توجد دراسات لبلاغة ابن رجب وبيانه، وما يحويه خطابه من منطق إقناعي حجاجي، ووظائف تواصلية.

ويمكن إيجاز الأهداف في الآتي:

١. تحليل الوظائف التواصلية للأساليب البلاغية وبيان أثرها في تشكيل الصورة وإيصال المعنى.

٢. الكشف عن البنية الفنية للعناوين والمقدمات وفاعليتها في تحقيق مقاصد الخطاب.

٣. تحديد العلاقة بين القيمة البلاغية والوظيفة الإقناعية في بيان ابن رجب، وما تحمله معانيه من توجيه وتأثير.

وتتمثل مشكلة البحث في: تحليل البنية الأسلوبية للعنوان والمقدمة عند ابن رجب للكشف عن آلياتها التركيبية، وجمالياتها البلاغية، واستجلاء دورها في توليد الدلالة، وبناء الحجاج، وكيفية صياغة بيانٍ علمي يوازن بين اقتصاد اللغة وفاعلية الإقناع. ويتفرع عنها أسئلة عدّة، هي:

س١: كيف أسهم التكوين اللغوي والفكري لابن رجب في إنتاج المعاني البلاغية، وما أثر ذلك في توجيه صناعة العنوان، وبناء المقدمة؟

س٢: هل يُحقّق العنوان من خلال تكوينه ونسجه خصائص تركيبية دلالية، وسمات بلاغية إيقاعية؟

س٣: إلى أيّ مدى تترابط المقدمة في بنائها من استهلال، وتخلص، وانتهاء، وما أثر ذلك في توجيه المعنى، واستمالة القارئ؟

س٤: إلى أيّ حدٍّ يمكن للأساليب البديعية إثراء معاني متغازرة داخل البناء التركيبي دون أن تكون مقتصرة على الحلية اللفظية والزخرفة الشكلية؟

وراعت الدراسة في الجانب النظري المنهج الوصفي القائم على التتبع والاستقراء؛ للكشف عن خصائص التكوين اللغوي والفكري عند ابن رجب، كما راعت في الجانب التطبيقي المنهج البلاغي القائم على تحليل عتبة العنوان والمقدمة، وما تحويه من أساليب وصور ذات دلالات معنوية، وقيم توجيهية، وانفعالات نفسية، وكشف دورها في السياق، وأثرها على المتلقي.

الدراسات السابقة: لم أجد – فيما اطلعت – دراسة بلاغية تتناول بيان ابن رجب بالنظر والتحليل؛ ولكن الوقوف على مؤلفات العلماء في دراسة العتبات، وفي دراسة الجمال الموسيقي، كانت دافعًا أساسيًّا لإقامة هذا البحث.

خطة البحث: وتشتمل على: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمة، متبوعة بقائمة المصادر والمراجع.

المقدمة: وتتناول أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، ومشكلته، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد، بعنوان: التكوين اللغوي والفكري لابن رجب، وأثره في تكوين المعاني البلاغية.

المبحث الأول، بعنوان: العتبة الأولى: صناعة العنوان بين الدلالة والإيقاع، وفيه أربعة مطالب، هي:

المطلب الأول: القيم التركيبية في العنوان

المطلب الثاني: القيم الدلالية في العنوان

المطلب الثالث: القيم البلاغية في العنوان

المطلب الرابع: القيم الصوتية في العنوان

المبحث الثاني، بعنوان: العتبة الثانية: بلاغة الإقناع في بناء المقدمة، وفيه ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: الاستهلال

المطلب الثاني: التخلص

المطلب الثالث: الانتهاء

التمهيد: التكوين اللغوي والفكري لابن رجب، وأثره في تكوين المعاني البلاغية

لقد تظافرت مجموعة من المقومات والمرجعيات التي جعلت من ابن رجب نموذجًا بارزًا بما يمتلكه من أدوات ومعارف، فنضجت أفكاره وتمحصت ضمن سياقات متعددة؛ إذ ارتبط ارتباطًا وثيقًا بواقع عصره، وما حوى من علوم تكوّنت بفضل زمرة من العلماء الذين اتصل بهم، وأخذ عنهم، بدءًا من أسرته (العسقلاني، ١٩٦٩، ٤٦٠/١)، فهي أسرة علمٍ ضليعة في الإمامة العلمية، ثم شيوخه (ابن العماد، ١٩٨٥، ٣٣٩/٦) الذين تلقّى عنهم، فقوي عزمه، وتكوّن بناؤه الذهني والفكري (ابن رجب، ٢٠٠٣، ١٢/١؛ ٢٠٠٥، ٢١٣/٢)؛ لما لتوجيهاتهم من أثرٍ عليٍّ النفعِ في حمل العلم وفقهه؛ فلقد "مهر في فنون الحديث: أسماء ورجال، وعلل وطرق، واطلاع على معانيه، حتى صار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق" (المغراوي، ٢٠٠٧، ٤٣٨/٨)، كما برع في علم الفقه والأصول حتى صار من أعلام المذهب الحنبلي فقيهًا محدثًا، وفي علم التاريخ، والأدب، والزهد، والوعظ، "فسخَّرَ حياته وعمره لخدمة هذا الدين العظيم، وجمع نفسه على التصنيف والإقراء" (ابن رجب، ٢٠٠١، ٣٣/١)، فكل تلك العلوم مجتمعة تُعدّ المدخل الأول لمعرفته بأسرار القول، وطرائق النظم، فانعكس نماءُ الفكرِ، وحسنُ الاختيارِ على مؤلفاته، وعلى الأخصّ كتابه: (استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس)، فنطق به عن قصدٍ بيّن، ووعي تامٍ، وإدراكٍ محكمٍ، وفهمٍ عميقٍ، ومعالجةٍ لغويةٍ دقيقةٍ أنتجت معانٍ بلاغيةٍ متلائمةٍ مع سياقِ الكلام ومقتضى الحال في توجيهِ المتلقين لحسنِ النظر في تلقي الحبّ الإلهي وفق المنبع الإسلامي السمح.

ومما أثّر في تكوين ابن رجب ما يأتي:

أولًا: القدرة العقلية؛ حيث الدقة في التحليل ومناقشة المسائل والأقوال والآراء، وتوظيف العقل في استنباط الأحكام استنباطًا متزنًا صائبًا مرجعه الكتاب والسنة؛ ليُعلِم المتلقي بالرؤية والفكرة متكاملة، بموضوعية في القول والاختيار والتوجيه. **ونتاج ذلك يظهر في عدة أمور:**

١. التّمكنّ من اللغة والدراية بمقتضياتها، والإلمام بها، ومعرفة أسرارها، وطرائق القول فيها.

٢. الكفاية الإنتاجية: إبداعًا يحقّق التواصل، تبليغًا يحقّق التأثير.

٣. التبحر العميق في ميادينِ العلم والمعرفة؛ مما جعل مؤلفاته قابلة للفهم والدرس.

٤. ثراء التراكيب الدلالية؛ حيث الانتقاء الجيد، والتخير الأمثل، فلقد أحسن في وضع التعريفات عند الفقهاء والأصوليين بتعريف جامع (الأشعري، ١٤١٣، ص٧٣)، وأبان في الردِّ على المسائل

والاعتراضات في علم الفقه ببيان حصيف، وأدلة قاطعة (الأشعري، ١٤١٣، ص١٢٩)، وفصّل القول في شرح الأحاديث شرحًا مشرّبًا في بيانه وعلمه (القاسمي، ١٩٩٤، ٢٢٦/١).

ثانيًا: السعة الفكرية؛ حيث التأليف العلمي في ميادين مختلفة؛ مما أنتج أفقًا معرفيًّا واسعًا، وثراءً علميًّا مكينًا، ونتاج ذلك مؤلفاته التي أثرت المكتبات العربية في مختلف الميادين (ابن رجب، ٢٠٠١، ١٤/١).

ثالثًا: الذائقة البلاغية؛ حيث البراعة في بناء التراكيب وحسن توجيهها، وانتقاء الأساليب وجودة توظيفها؛ لمحاولة أن تصل الفكرة إلى قلب السامع فتمكّن في نفسه كتمكّنها في نفس ابن رجب مع صورة مقبولة ومعرض حسن (العسكري، ١٩٩٨، ص١٠)، **ونتاج ذلك في عدة أمور:**

١. التوازن بين بلاغة القول وبراعة الفهم في تفسير الآيات، وشرح الأحاديث، إلى جانب استخلاص العبر ونسجها في نسق بلاغي يجمع بين الإقناع: ترهيبًا، والإمتاع: ترغيبًا؛ فلقد "كانت مجالسه تذكرة للقلوب صادعة، وللناس عامة مباركة نافعة، اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه، وزهده وورعه فائق الحد" (المغراوي، ٢٠٠٧، ٤٣٧/٨).

٢. جمع بين البلاغة والفقه والتفسير والحديث بطرق فريدة، فكتابه (استنشاق نسيم الأنس) أنموذج بلاغيّ أنتج معاني بلاغية متماسكة، متسقة ومترابطة تخدم السياق والمقام، فـ"البلاغة في الموعظة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقصر خطبتها ولا يطيلها، بل كان بيلغ ويوجز" (ابن رجب، ٢٠٠١، ١١١/١).

ولا يخفى للناظر؛ فالمقدمة اتسمت ببراعة القول وبلاغته، وامتاز الأسلوب فيها بجملة من السمات البلاغية، والخصائص الأسلوبية؛ حيث حسن التأني في إيصال المعاني، والإصابة في حسن الاختيار، والتوظيف لمحاسن النظم في مقام من أعظم مقامات الإيمان، بما يهذّب السلوك – دون إكراه – بمنهج سليم صائب، بعيدٍ عن مخاطر العقيدة ومفاسدها، فناقش (علامات الحب الإلهي، وثمرات تلك المحبة، ومقتضياتها) بفكر عقلي حكيم، وأسلوبٍ حيٍّ سديد، يجمع بين (العمق في التعبير، والقدرة على التأثير)، بنظر صائب، وقولٍ محاطٍ بدليل من قرآن كريم، وحديث نبوي، وشاهد شعري؛ ليؤسس من تلك المقدمة مبادئ وقيمًا ترشد العاقل إلى صفاء العقيدة في علاقته بربه وقربه منه.

ويلاحظ أن ابن رجب كتب في موضوعات شتى، ولكن تدور غالبًا حول الحديث الذي يشغل الحيز الأكبر، والفقه والوعظ، والتريخ، كما يلاحظ من خلال القراءة في كتبه أن أسلوبه سلس، لا يتقيد كثيرًا بالمحسنات اللفظية، ويبدو أن كتابه (استنشاق نسيم الأنس) من المؤلفات التي كتبها في أواخر حياته، وقيل هو من ألطف كتبه بيانًا، ألف بعد اكتمال نضجه العلمي والفكري (العسقلاني، ١٩٦٩، ٤٢٨/٢).

المبحث الأول: العتبة الأولى: صناعة العنوان بين الدلالة والإيقاع

إن من أبرز دلائل العنوان الابتداء (ابن منظور، ١٩٩٣، ١٣/٢٩٠)؛ إذ هو أول ما يطرق ذهن المتلقي؛ لذا فالصدارة تتطلب الجودة والإتقان في اختياره ونظمه على نسق مخصوص يُحدده ويميزه، ويدل على محتواه (رحيم، ٢٠١٠، ص٤٣)، وصناعة العنوان تقوم على ركنين أساسيين، هما: الدلالة، والإيقاع، فالدلالة تَظهر فيما يحمله العنوان من شحنات دلالية معرفية (صراحة أو ضمنًا)؛ كأن يدل على معناه دلالة إخبارية مباشرة، أو يُوظف رموزًا تركيبية يقتضيها سياق الحال ومقتضى المقام، أما الإيقاع فإنه يَظهر في التركيب اللغوي، والنحوي، والصوتي، فتلك مجتمعة تؤثر في توجيه المعنى، وجذب الانتباه (رحيم، ٢٠١٠، ص٤٥).

فالعنوان مصطلح إجرائيّ، ومفتاح أساسيّ، يتسلَّح به المحلَّل للولوج إلى أغوار النص العميقة؛ قصد استنطاقها وتأويلها" (قطوس، ٢٠٠١، ص٣٧)، وهو: "نظام دلالي رامز، له بنيته السطحية، ومستواه العميق، مثله مثل النص تمامًا" (قطوس، ٢٠٠١، ص٣٨)، وهو نتاجُ عقلٍ، ووليدُ إرادةٍ، يستلزم حضورًا عقليًّا، وقدرةً أدبية (مفتاح، ١٩٩٠، ص٦٦).

ومن الطبيعي: أن تجد الكاتب الحذق يَجدُّ ويجتهد في اختيار العنوان الكاشف لمقاصده، وهذا ما جاء واضحًا في اختيار ابن رجب لـ(استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس)، فجمع في صناعته كل ما من شأنه أن يساعد على توصيل المعاني وإثارة المتلقي (عبد المطلب، ١٩٩٤، ص٦٠)، والعنوان لافتة دلالية، ذات طاقات توجيهية إبداعية مكتنزة، ومدخل أولي في عملية القراءة الجيدة والتحليل الصحيح (قطوس، ٢٠٠١، ص٣١)، ولا يمكن للمتلقي الدخول إلى نص المقدمة دون نظرٍ وتأملٍ في طاقات العنوان وما يلازمها من مقاصد، والألفاظ لا تُراد لأنفسها، وإنما لتُجعل أدلة على المعاني، وهذا لا يُلغي النظر في دلالة الكلمات وصولًا إلى تمكّنها في نفس المتلقي، فيقدّم العنوان معركةً كبرى لضبط انسجام المقدمة وفهم ما غمض منها؛ إذ إنه المحور الذي يتنامى، ويعيد إنتاج نفسه، ويحدّد هوية المقدمة (مفتاح، ١٩٩٠، ص٧٢).

ومن أهم الخصائص التي تُميز العنوان كعتبة نصية أولى ما يأتي (بلعابد، ٢٠٠٨، ص٦٦):

١. يعدُّ العنوان عنصرًا موازيًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمقدمة والمتن، له من المبادئ التكوينية والمميزات التجنيسية ما يجعله بخصائص مائزة، متضمنًا أبعادًا تناصية: استنساخًا، واستلهامًا، وتحاورًا (قطوس، ٢٠٠١، ص٤٥).

٢. يتَّسم العنوان بالجدَّة والأصالة، والكثافة الدلالية، والبعد الجمالي؛ لإغراء المتلقي وإثارته، فـ"العنوان الجميل هو القوّاد الحقيقي للكتاب" (بلعابد، ٢٠٠٨، ص٨٧).

٣. يُشكّل العنوان مدخلًا أوليًّا، ونصًّا قابلًا للتحليل، وسراجًا يضيء ما غمض، فهو ليس عنصرًا زائدًا،

وإنما هو نقطةٌ مركزية، وعتبة أولى، وعنصرٌ محوري في تشكيل الدلالة، وتفكيكِ الدوال، وإيضاحِ الخارج قصد إضاءة الداخل (قطوس، ٢٠٠١، ص٥٣).

وفي هذا السياق يبرز عنوان (استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس) بوصفه أنموذجًا غنيًّا بالقيم التركيبية، والدلالية، والبلاغية، والصوتية، وهي كالآتي:

المطلب الأول: القيم التركيبية في العنوان

حيث التدرّج في بناء المعاني تدرجًا متّسقًا، يجسّد حركة تصاعد المعنى وتناميه داخل النظام التركيبي، عن طريق آلية التركيب والتكوين في: (استنشاق، نسيم، الأنس، من، نفحات، رياض، القدس)، فالطرف الأول في بناء العنوان قائم على تجسيد المحسوسات وإثارتها في الذهن لتنمو وتتغازر، وأما الطرف الثاني فقائم على الاهتمام بالمعنويات، وإبراز دورها في تركيب المعنى، إلى جانب توظيف الأسماء في نسج العنوان لتقوى العلاقة الجامعة بين طرفيه، فهو حالةٌ دائمةٌ، وشعورٌ مستمرٌّ لا يتوقف ولا ينقطع في أزلية الحب الإلهي ودوام أثره.

كما امتاز العنوان ببناء تركيبي يقوم على تتابع الإضافات التي تتدرج بالمعنى في سلسلة لغوية مترابطة، تُحدث تناغمًا صوتيًا ودلاليًا، فصيغ العنوان بنسق ثنائي (استنشاق نسيم الأنس)، و(نفحات القدس رياض القدس)، يُحقق انسجامًا إيقاعيًا، وتناظرًا دلاليًا، إلى جانب حسن توظيف المصدر (استنشاق) كبنية افتتاحية، فالمصدر هنا يُعطي بداية حركية تُحفز المعنى، وهو تركيب بلاغي يُستعمل لتهيئة المتلقين للدخول إلى مضمون الكتاب.

المطلب الثاني: القيم الدلالية في العنوان

حيث نظم المعاني الوجدانية وسبكها في مقامات الحب الإلهي قولًا، وعملًا، واعتقادًا، وهذا ما أكسب العنوان نصًّا مكثفَ الدلالة، ذا جرس بديعي بلاغي يشدّ انتباه المتلقي، فمفردة (استنشاق) بما تحويه من أبعاد دلالية في تكرار صوت (السين)، وما يُثيره في النفس من أن الجذب الحاصل من عملية الاستنشاق أداة تنقية وتصفية وتطهير من كلِّ كدر، وإزالة لكلِّ وحشة؛ لترتاح النفوس، وتسعد القلوب، وتشفى الأرواح بمعية القرب من الله، فهو همسٌ يتصاعد ويتنامى داخل الكيان البشري، حتى يبلغ درجة الظهور والانتشار، فالمحبة موطنها القلب، والاستنشاق تطهير للقلب والنفس والجسد معًا، وهنا مرحلة تأسيس؛ لتبدأ الحياة الحقّة في قوة الإيمان، و(نسيم الأنس) و(نفحات الرياض) تجسدان السرور والطمأنينة بإيحاء حسي يُثير الانفعال، ويُحدث التأثير، والكلمات إنما هي "أحداث لها بُعدها الزماني والمكاني، بمعنى: أنَّ لها بعدًا ماديًّا، وأنَّ لها معاني ترمز إليها" (عبد المطلب، ١٩٩٤، ص٦٨). وفي (نسيم الأنس) دلالة وجدانية تشع لطافةً ورقّةً، وتُبدِّل الوحشة والخوف إلى الأمان والسَّلام، وبهذا فإنّ التركيب الدلالي في العنوان يدلّ على فهم، ووعي، وتبصر، وإحاطة بكنه المحبة الإلهية.

وثمرة الاستنشاق تزكيةُ دواخلِ النفس وتطهيرها من كل داء؛ ليصبح القلب سليمًا معافًى، متأهبًا لتلقّي نسيم الأنس، فينفعل به، وينمو، ويتكاثر، ويزداد حتى يفيض على الجوارح (قولًا، وعملًا، واعتقادًا)، فيعظم المطلوب حيث التكليف في الانقياد والإفراد، والتثقيف في الالتزام والامتثال؛ لتكون العبادة على الوجه الأكمل.

والعنوان أداة (معالجة، وإعادة، وخلق)، معالجة في التخلية التامة، وإعادة وخلق في التحلية المتجددة بتقرير المحبة والمعرفة الإلهية وعلاماتها، وطرائقها، ولوازمها في قلوب العباد، "ولو أن كل عبدٍ قام بما أحب الله تعالى جدُّهُ منه قيامه بما يحب منه محبوبه من البشر ... لكان مقامه في مقامات القرب الأقدس عظيمًا" (سعد، ٢٠٢١، ص٥٠).

المطلب الثالث: القيم البلاغية في العنوان

حيث جمال الاستعارة المكنية الأصلية في (استنشاق نسيم الأنس)، (نفحات رياض القدس)؛ إذ جعل للأنس – وهو شعور: معنوي، وجداني، روحي – نسيمًا عذبًا يُستنشق دون توقف؛ بجامع الاستطابة الروحية والجسدية في كلٍّ، وعاد فشبه (القدس) ببستان ذي حدائق ترسل النفحات محبة، وبهجة، وسرور؛ بجامع دوام الأثر في كلٍّ، وجمال الكناية في (نسيم الأنس)؛ إذ يمكن حمله على إيثار صفة الراحة، والهدوء، والسكينة الروحية، والتناسب في حسن مراعاة النظير في (نسيم، نفحات، رياض)، لما تحويه من عبير يتمايح ويتماهى في امتداد وانتشار. وحسن التخلص والتدرج في نسج العنوان من الحسّية إلى المعنوية، وتناغم السجع في (الأنس، والقدس) إبرازًا لجمال النغم الموسيقي، وأثره في المعنى.

المطلب الرابع: القيم الصوتية في العنوان

حيثُ تناغم الحروف، واتصال الكلمات في نسق إيقاعي، اتسم بالهدوء، والصفاء، والسكينة، والانشراح؛ مما أضفى على العنوان بعدًا جماليًّا، يزيد من قيمته وجاذبيته، ويتمثل ذلك في: التوازن الصوتي بين: (استنشاق، نسيم، الأنس، القدس)، فالتعالق الصوتي بين هذه المفردات يُحاكي المعنى ويُجسّده، ويعكس اتحادًا روحيًّا وجدانيًّا، ويسعى إلى نقل تجربة تأملية، ويوجّهه الشعور نحو التذوق القلبي، والتلقّي الروحي لمقامات الحب الإلهي، "فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا، ومنحه المتكلم دلًّا متعشقًا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلتْ في العيون عن مقادير صورها، وأربتْ على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت" (الجاحظ، ١٩٩٨، ص١٧٥)، فالبناء الصوتي قائم في تركيب العنوان على حسنٍ في النظر، وتأنٍ في الاختيار، وضبطٍ في البناء.

(**استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس**)، تكرار (السين) أربع مرات، همسًا، ورقّةً، وانسيابًا يُهيء للمتلقي تألقًا نفسيًّا روحيًّا هادفًا، بعيدًا عن الصخب والشدة، و(النون) خمس مرات، بنغم موسيقي داخلي، لطيف، بديع، يوحي بالهدوء والنعومة، و(الشين) مرة واحدة، امتلاءً ينتشر ويمتد ويتسع كل رياض القدس في

تمايحه وتماهيه، فالمدود الصوتية في (نسيم، رياض، نفحات) تعزز الحركة اللطيفة في جمال الاستطابة داخل مشهد عطري يفوح عبيرًا، و(القاف) مرتين، بطبيعة متزنة تقود نحو الوقار، والثبات، والدوام، "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سببٌ في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدًّا، أو غنّةً، أو لينًا، أو شدّةً، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الارتفاع والاهتزاز وبُعْد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى" (الرافعي، ٢٠٠٥، ص١٤٩)، فالتناغم والامتزاج والتآخي في تخيّر الألفاظ مدار البلاغة وجوهرها (العسكري، ١٩٩٨، ص١٤١)؛ إذ ينقل المتلقي الحي اليقظ إلى عوالم من التأمل الفكري والروحي، فيصل إلى مقامات القرب الإلهي من المحبة، والتسليم، والاطمئنان.

المبحث الثاني: العتبة الثانية: بلاغة الإقناع في بناء المقدمة

تعدّ المقدمة مفتاحًا جوهريًّا لقراءة النصوص؛ إذ لا بدّ لكلِّ كلامٍ من بساط يُبسط قبله يكون منه بمنزلة الأساس من البيان، يُفسِّره ويكشف حقيقته، وعلى هذه السبل جرت عادة الكُتّاب في نسج مقدماتهم (القلقشندي، ١٩٢٢، ٢٦٧/٦)، والمقدمة نصٌّ موازٍ للمتن (بلال، ٢٠٠٠، ص٢١)، مكون "من العناصر المعرفية والمنهجية والأخلاقية التي لا غنى للقارئ عنها في فهم المتن، وإتمام قراءته في يسر وفائدة ومتعة" (سلوى، ٢٠٠٣، ص٢٢)، وهي أيضًا: مفاتيح لـ"قراءة النصوص، وفهم التأليف منذ انطلاقتها الأولى من المؤلف إلى غاية وصولها بين يدي القارئ، مرورًا بمكونات النشر وما تستلزمه هذه المرحلة من طقوس وقواعد" (سلوى، ٢٠٠٣، ص٩).

والمقدمة خطاب متصدر واصف لمتن الكتب على اختلاف مجالاتها، وقراءة المتن مشروطة بقراءة نص المقدمة، فكما أنه لا يمكن الولوج إلى فناء الدار قبل المرور بعتباته، كذا لا يمكن الدخول إلى عالم النص قبل المرور بعتباته (بلال، ٢٠٠٠، ص٢٢)، فالعلاقة بين النص ولواحقه علاقة تعاضد وتلاحم، لا انفصام وتشتيت (سلوى، ٢٠٠٣، ص١٩).

والطريق الأمثل لبناء المقدمات هو النهج القويم الذي سار عليه أهل العلم، فـ"ينبغي أن يُعرف أنه لا بدّ من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه: الهمّة، والمنفعة، والنسبة، والصحّة، والصّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير" (الجاحظ، ٢٠٠٣، ٦٨/١)، وهذه الثمانية معايير تَجعل المولَف "أهلًا بالثقة، والذيوع، والانتشار، وتمنحه المصداقية" (بلال، ٢٠٠٠، ص٢٨)، ومن النهج القويم أنه "لا يرضى بالكتاب حتّى يخزمه ويختمه، وربّما لم يرضَ بذلك حتى يعنونه ويعظمه" (الجاحظ، ٢٠٠٣، ٦٦/١)؛ ليبقى المُؤلَّف في حفظ، ومأمن بعيدًا عن الضياع.

ولقد اشترط العلماء (الجرجاني، ١٩٩٢، ص٣٩) مجموعة من القواعد الأساسية في بناء المقدمات، وهي:

القاعدة الأولى: الحرص على حسن الصياغة والديباجة باعتماد الأسلوب الأدبي، سيرًا على نسق الرسائل الفنية؛ حيث دقة البناء في النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب، وجمال التشكيل في الصياغة، والتصوير، والنسج، والتحبير، فيكون مطلع الكلام أنيقًا بديعًا؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فيُقْبل السامع على الكلام ويعيه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه (العسكري، ١٩٩٨، ص٤٣٧)، فقد أوصى بعضُ النقاد الكُتّابَ: "أحسنوا معاشر الكُتّاب الابتداءات، فإنّهن دلائل البيان" (العسكري، ١٩٩٨، ص٤٣١)، وبهنّ تتحقّق الوظيفية التواصلية في فهم المعنى والكشف عنه، "والمقدمة الجيدة ذات الاستهلال الحسن تزيد النفس بحسنها ابتهاجًا ونشاطًا لِتلقّي ما بعدها ... ولا يخلو الإبداع في المبادئ من أن يكون راجعًا إلى ما يقع في الألفاظ من: حسنِ مادةٍ، واستواءِ نسجٍ، ولطفِ انتقالٍ، وتشاكلِ اقترانٍ، وإيجازِ عبارةٍ، وما جرى مجرى ذلك مما يُستحسن في الألفاظ، أو إلى ما يرجع إلى المعاني من: حسنِ محاكاةٍ، ونفاسةِ مفهومٍ، وتطبيقِ مفصلٍ، بالنسبة إلى الغرض، وما جرى مجرى ذلك مما يُستحسن في المعاني، أو إلى ما يرجع إلى النظم من: إحكامِ بنيةٍ، وإبداعِ صيغةٍ، ووضع ما ناسب ذلك مما يُحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من: حسنِ منزعٍ، ولطيفِ مذهبٍ، وما جرى مجرى ذلك مما يُستحسن في الأساليب ... وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبًا لمقصد المتكلم في جميع جهاته، فإن طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر" (القرطاجني، ١٩٨٦، ص٩٩)، وبهن يتحقّق كمال التواصل بكشف المعنى والإفهام.

وبالنظر في مقدمة (استنشاق نسيم الأنس) تُلحظ عدة أمور، تمثّلت في الآتي:

١. حسن النظر، وحسن الاختيار، وحسن التأثير إقناعًا وإمتاعًا، فارتكزت المقدمة على بيان القول في مكنون المحبة الإلهية؛ حيث (**عبادة القلب**) في المعرفة، إذا عرف العباد شروط المحبة يقينًا، و(**عبادة النفس**) في الصبر على ملازمة المحبة عملًا، و(**عبادة الجوارح**) في الانقياد والالتزام، فهي محبة اصطفاءٍ، وإخلاصٍ، وإفرادٍ.

٢. الدقة في البناء وفق معايير منهجية ضابطة على المستوى المكاني باعتبارها خطابًا استهلاليًّا أوليًّا، وعلى المستوى الزمني باعتبارها آخر ما يسطره الكاتب (بلال، ٢٠٠٠، ص٤٢)، فالمقدمة هي أنموذجٌ حيٌّ، وطاقةٌ توجيهيةٌ، تزخر بالدلالات انسجامًا وتناغمًا، يحقق التأثير على المتلقي إقناعًا للعقل، وإمتاعًا للنفس.

٣. تحرّرت المقدمة من ربقة التّصنّع والتّكلّف، وتأصّلت في السّمت والطبع، وجاءت في صورة مقبولة، ومعرض حسن، "وإنما يكون الفضل في الإلمام بالمعاني، وأخذ العفو منها، كما كانت الأوائل تفعل، مع

جودة السبك، وقرب المأتى" (الآمدي، ١٩٩٤، ص٥٢٥)، وهذا ما جعل ابن رجب يتنحى بعيدًا عن التّصنّع والإفراط، فهو عارفٌ بمقاييس النظم؛ إذ تأتيه المعاني أرسالًا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالًا (الجاحظ، ١٩٩٨، ص٢١)، وما التكثيف الجمالي، والنسق الإيقاعي إلا عامل مساعد، يُحقّق في النص وظائف تواصلية.

والقاعدة الثانية: عدم الإطالة في المقدمة (الجحمري، ١٩٩٦، ص٤٠)، فالحشو في غير موضعه عيب من عيوب صنعة الكلام؛ إذ يكون ذلك مدعاة إلى السآمة والملل، ولقد تحقق لابن رجب في بناء مقدمته ضبط حدودها بإحكام من غير تقصير أو إخلال.

والقاعدة الثالثة: الحرص على ضرورة انسجام ما تحتويه المقدمة من معلومات مع موضوع الكتاب، فالشأن فيها كالشأن في العنوان: البوح، والاعتراف، والوشاية (الجحمري، ١٩٩٦، ص٤٠)، وتلك خاصية جوهرية تمثلت في مقدمة ابن رجب بشكل ملحوظ؛ حيث سعى إلى تنبيه متلقي كتابه إلى ما يحتويه، من: براعة استهلال في التحميد والتصلية، وحسن انتقال في بيان المقاصد، والأهداف، والدوافع، في وعاء معرفي يضم رؤيته الحاملة فكره، ومنهجه في إيضاح حقائق المحبة والمعرفة الإلهية، فاتخذت المقدمة طريقًا واضحًا متدرجًا في الفهم والتصور؛ ليحسن العباد طرائق التلقّي الصحيح، ردعًا من الزيغ، وكشفًا لما جاد وحسن واستقام، والمرتكز الأسمى في هذا الباب: الفهم، وحسن الإدراك، وهذا هو المعول عليه عند السلف، فـ"العلم هو الفهم والدراية" (البغدادي، ١٩٨٩، ١٧٤/٢)، والذي عليه جماعة فقهاء المسلمين ذمّ الإكثار دون تفقه وتروٍ (ابن عبد البر، ١٩٩٤، ١٢٤/٢).

والقاعدة الرابعة: توجيه القراء وإرشاد المتلقين إلى ما سيكون عليه المتن من أفكار ومعارف، من خلال ذكر الأبواب وتقسيم الفصول مجملة موجزة، وهذا مما يؤكد دور القراءة الجيدة الماثلة في التفاعل والمناقشة بين المتلقي والنص (حسين، ٢٠٠٧، ص٩٨).

والقاعدة الخامسة: الأقيسة والبراهين: حيث وظف ابن رجب البراهين من القرآن، والحديث، والشعر؛ مما يدل على وعيه بماهية المقدمة، وربط فقراتها بخطاب إقناعي مستند على شواهد برهانية، وأقيسة عقلية؛ لتكون الأعناق إليها أميل، والعقول عنها أفهم، والنفوس إليها أسرع (الجاحظ، ١٩٩٨، ص٣١).

المطلب الأول: الاستهلال

إن من أهم متطلبات التواصل في بناء المقدمات براعة الاستهلال التي تجعل من المقدمة نصًا مكثفًا؛ لما يحويه الكتاب من أفكار ومعانٍ، تلك الغاية التي من أجلها قام كتاب ابن رجب؛ فلجأ إلى توظيف أمرين أساسيين: الصرامة في الاستدلال؛ بغية الإقناع، وإمالة المتلقي؛ بغية الاستجابة والامتثال، "يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإصابة عيون المعاني" (الجاحظ، ١٩٩٨، ص١٣٧).

بدأ بقوله: "الحمد لله الّذي فتح على قلوب أحبابه من فيح محبته، فعبق فيهم نشره وفاح، وشرح صدور

أوليائه بنور معرفته، فأشرق عليهم نوره ولاح" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣)، فهو مدخل لخطاب حجاجي إقناعي، يُصور المحبة الإلهية، ويكشف أثرها في الكيان الروحي، ونتيجتها في السلوك والتصرفات، "فكمال العبد في عبوديته، وكمال الرب في ربوبيته، ولا يتوصل العبد إلى كماله في العبودية وكماله في معرفة الربوبية إلا عبر المعرفة" (ابن رجب، ٢٠٠١، ١٤٦/١)، ولا شك إن عرفوا ربهم أحبوه وأطاعوه، وعشقوا قربه، وخافوا بعده، وجعلوه نصب أعينهم، فوضعهم في ظله وتحت عنايته، فـ(الحمدلله)، اختصاصًا بالحمد لذاته، وهذا أول دليل من دلائل استحقاقه المحبة، والسياق يتطلّب إيثار معاني اللطف والرحمة؛ لتكون الدافع المحرك نحو التسليم، والإقبال، والامتثال، فالاستعارة المكنية الأصلية في (فتح من فيح محبته، عبق فيهم نشره وفاح) جسَّدت المعاني الروحية في مشاهد حيَّة مدركة بالحس؛ إذ جعلت الحب الإلهي نسيمًا عذبًا يهبّ تارة، وعبقًا عطرًا يفوح تارة أخرى، وذلك مما يجلب لنفس العابد السرور والارتياح، ولقلبه الهداية والرضوان؛ بجامع دوام الأثر في استطابة الروح، وامتداد الأنس في انشراح القلب وتعافي الجسد. ودلالة (فيح): على الدفء المنتشر في رقة وانسياب (ابن فارس، ١٩٧٩، ٤٦٣/٤)، و(عبق): على الامتلاء والانتشار، بلطف محمل بزكاء، وطيب ملتصق بهم ملازم لهم (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢١٢/٤)، و(نشر): على التفرق في زيادة وشمولية وامتداد لذلك الطيب الفواح (ابن فارس، ١٩٧٩، ٤٣٠/٥)، و(فاح): مزيد عناية وتأكيد لدلالة (فيح)؛ حيث سعة الانتشار، وعموم الامتداد، وهذا أكمل في إثبات معنى الشمول، والعموم، والإحاطة، والامتلاء؛ إذ هو تأكيدٌ معنوي، يعمّق شعورَ الإحساس بالارتياح، والسكينة، والأمان، والسّلام.

ومن دقائق المعاني: أنَّ الاستهلال استهلالٌ بارعٌ يتنامى بحسن الاختيار، فالاستعارة الثانية في (**شرح** صدور أوليائه بنور معرفته، فأشرق عليهم نوره ولاح) أثر ونتيجة للاستعارة الأولى، فشرح الصدور نتيجة الفتح، والإقبال على المحبوب إقبال رضوان وتسليم يُولّد في العقل معرفة حقيقية بكنه ذلك المحبوب، فاستعار (الشرح) للقبول، واستعار (النور) للمعرفة؛ بجامع الإصابة، والوضوح، والهداية الروحية والعقلية التي تخرق حجب القلوب فتكشفها، فيحصل المطلوب امتثالًا للأوامر، واجتنابًا للنواهي، فدلالة (شرح): على مطلق الفتح، والبيان، والمعرفة (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢٦٩/٣)، و(أشرق): على الإضاءة، والفتح، والطلوع (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢٦٤/٣)، و(لاح): على الظهور، والسطوع، فبان بيانًا متحققًا متقررًا لا لبس فيه (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢٠٢/٥)، وهذا أتمّ في بيان معنى الفهم، والعلم، واليقين، والوعي التام في الإلمام بمتطلبات المعرفة الإلهية.

ومما ساعد في تعميق المعنى الدلالي: إيثار حرف التعقيب في (فعبق، فأشرق)؛ ليصِّورَ سرعة حصول التأثير الناجم من تغلغل الحب الإلهي وامتداده داخل الروح البشرية، إلى جانب تقديم الجار والمجرور في (فتح **على قلوب** أحبابه)، (فعبق **فيهم** نشره)، (فأشرق **عليهم** نوره)، فالعرب تقدّم الذي "بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أَعْنى" (سيبويه، ١٩٦٦، ص٣٤)، فالغاية: معالجة الذات البشرية، ومحاولة إصلاحها. ويظهر في تخصيص قلوب الأحبة مزيد تأكيدٍ على شرفها، وطلب رعايتها والعناية بها، وهذا مما يجعل المعنى أقوى

حضورًا في نفس السامع. وفي الأفعال الماضية (فتح، عبق، فاح، شرح، لاح) ما يدل على تحقّق الأمر تحقّقًا يُشعر العبد بأهمية ما تقتضيه دلالة كل فعل. وفي التقابل الدلالي بين الجملتين (فتح على قلوب أحبابه من فيح محبته، فعبق فيهم نشره وفاح)، و(وشرح صدور أوليائه بنور معرفته، فأشرق عليهم نوره ولاح) نغم صوتي، يزيد من جمال المعنى. وفي حسن الجناس المرسوم في (فتح، فيح)، واللاحق في (فاح، لاح)، و(فتح، فاح) لون من الانسجام والتناغم؛ لما في الألفاظ من تشابه في الوزن والصوت، فالجناس أداة فنية تزين الكلام، وتجعل الذهن ينتقل بين المعاني المختلفة وهو مستمتع بجرس موسيقي ينساب بين الألفاظ، يثير في المتلقي حب الإقبال، ويهيئه لقبول المعنى. وفي حسن السجع في (محبته، معرفته، خشيته، محبته، معرفته، رؤيته)، وفي (وفاح، ولاح) حسن انتظام، زاد من جمال الألفاظ وتمكين المعاني، فـ"لن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أولًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيتها، وتَدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها" (الجرجاني، ٢٠٠٦، ص١٤).

وفي الفقرة الثانية من الاستهلال (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣) تتجلى مقامات القرب في يقظة روحية إيمانية لا تنقطع متصلة بين: (الرجاء والخشية)؛ أملًا في الرحمة، فالتوازن بين الرجاء والخوف يتطلب حسن المراقبة، وصدق العمل، والمحبة المقترنة بالخوف تدفع صاحبها إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ... والخشية لقاح المحبة (سعد، ٢٠٢١، ص٥٩)، ونتاج هذا: (غذاهم بولايته ومحبته)، والولاية والعناية ترفع من مقام العبد إلى منزلة الأصفياء، وهذا لا يكون إلا بأن يعرف الله معرفةً تُوجب محبته ومهابته، ورجاءه وخشيته، فيدفعه الحب والرجاء والخشية إلى امتثال أمره، والمهابة من إلى اجتناب نهيه، ولا يتحقّق أيضًا إلا بأن يعرف دواخل نفسه وفق ما فطرت عليه، فيزكيها مما يعيقها عن بلوغ الغاية التي من أجلها خُلق، وكل ذلك يحقّق للعبد إقبالًا على ما ينفعه وأُمِرَ به، وفِرارًا مما يضّره ونُهِي عنه (سعد، ٢٠٢١، ص٦٢).

ومما زاد في بيان المعنى وإيضاحه: حسن الالتفات، حيثُ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة (أحياهم بين رجائه وخشيته، وغذاهم بولايته ومحبته)، ثم إلى التكلم (فلا تسأل عما هم فيه من السرور والأفراح)؛ دفعًا للسآمة والملل، وتنشيطًا لذهن المتلقي، وطلبًا لمتابعته، ولفت نظره، وإثارة فكره، فلو كان الخطاب على ضمير موحد لما حصل المطلوب من تطرية الفكرة، وحسن المتابعة. والفعل (أحياهم)، يَخلق صورة شعورية قوية تؤكد استمرارية الإحساس التام بالأنس والسكينة وهم يعيشون رجاء ربهم، وخشيه، وولايته، ومحبه، فلا حاجة للسؤال عمّا هم فيه من السرور والأفراح، ودلالة الربط بالفاء في (فلا تسأل) تعظي الكلام تسلسلاً منطقيًّا، وتُعزز الترتيب السببي في السياق، وتُقنع المتلقي بحقيقة الحال، فجمع بين التأثير النفسي، والإقناع العقلي. فقدم (عما هم فيه)؛ لتعظيم الأثر في النفس تشريفًا وتشويقًا، والنهي مرجعه التعظيم والتشريف والتشويق لحال القرب من الله؛ بحيث لا يدرك ما هم فيه من النعم الدائمة، والرضا التام، وهذا تصويرٌ لحالةٍ شعورية لا يُحاط بها، تحرك نفس المتلقي، وتحثه نحو الإقبال. فعاد ثانية لسرعة

الربط بالفاء (فسبحان من ذكره)؛ ليثبت نوعين من التنزيه: تنزيه عن الشريك، وتنزيه عن العجز؛ لكون التنزيه عن الشريك يلزمه تنزيهًا عن العجز، ومن لم يكون عاجزًا كان هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، محلّ العبادة والإفراد (سعد، ١٩٧٩، ص٣٢١). واسمية الجملة توضّح معنى الثبات والدوام، والملازمة المستمرة لأثر الذكر في النفوس، فقّدم الجار والمجرور في (من ذكره)؛ لكونه الأصل، فهو الحياة المعنوية الروحية المثلى للعبد، فأكّد المعنى وزاد في تأكيده وتقريره بتوظيف التقابلات الدلالية في إيثار المترادفات: (قوت القلوب، قرة العيون، سرور النفوس، روح الحياة، حياة الأرواح)، وذلك يزيد من التناغم الصوتي، والعمق المعنوي، فقوله: (قوت القلوب) أداة فنية توجيهية تخدم المعنى وتوضّحه؛ لكون ذكر الله ومحبته ومعرفته أصلٌ عليٌّ يحقّق في النفوس تلك المعاني مجتمعةً، فهو بمثابة الطعام الذي يُغذي الأجساد ويمنحها الحياة، فقد أعطى توالي الثنائيات في النص انسجامًا، وتوازنًا، وإيقاعًا، وتكثيفًا للمعاني، وتحفيزًا للمتلقي، فمثلًا: (رجائه وخشيته)، (ولائه ومحبته)، (السرور والأفراح)، (ذكره ومعرفته)، (قربه ورؤيته)، (هيبته وتقواه)، فكمال المحبة أن تُقْرن بالتعظيم والهيبة، والمحبة بلا هيبة ودون تعظيم ناقصة، والهيبة والتعظيم من غير محبة نقص أيضًا، فكلٌّ في عوزٍ إلى الأخرى، والكمال أن تجتمع المحبة، والود، والإجلال، والإخلاص، وهذا لا يوجد إلا إذا كان في المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يُعظّم لأجلها، ويُحبّ لأجلها (سعد، ٢٠٢١، ص٦٢).

ومن محاسن النظم: مراعاة النظير في (السرور، الأفراح)؛ ليصور بدلالة الجمع البهجة والسرور الصادرة عن القرب من الله، وفي (القلوب، العيون، النفوس، الأرواح، الصدور)؛ ليفصح عن اتساع المحبة الإلهية وشمولها وإحاطتها بكافة أحوال النفس البشرية ومداخلها، فهي ألفاظ تدل على الذات الباطنة للإنسان؛ رغبة في تزكية وصلاح الجانب النفسي، والروحي، والجسدي في (أحياهم، غذاهم)، و(أحبابه، أوليائه)؛ لما بينهما من تناسب معنوي. والعكس والتبديل في (روح الحياة، وحياة الأرواح) تركيب بليغ زاد من قوة المعنى. والجناس المضارع في (قوت، قرة)، والسجع في (وخشيته، ومحبته)، و(الأفراح، والأرواح)، ليُظهر كمال العناية بكلِّ صفة من تلك الصفات، وكأن كلّ واحدةٍ في سياقها قد بلغت الغاية في تحقيق أثرها للنص، وقدرتها على تحقيق التواصل الفاعل والتأثير الناجح؛ وذلك باعتباره مكونًا من أمشاج لغوية متزنة، متلائمة، متلاحمة، تدلّ إذا حضرت، وتساعد في بيان المعنى المقصود.

وفي الفقرة الثالثة من الاستهلال (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣ وما بعدها)، ظهرت براعة ابن رجب في توظيف الأقيسة العقلية الإقناعية؛ ليصل العابد إلى درجة التفاني في المحبة، بحضور الذهن، وقوة التركيز، والتجرد من الفساد، فجاءت الأقيسة على عدّة طرائق، منها:

أولًا: المفردات القرآنية المدعمة لأهمية المحبة الإلهية، وأثرها على النفس البشرية السوية، فإن قوله: (تتجافى عن المضاجع الجنوب) اقتباس من ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، [السجدة: ١٦]، وقوله: (ترجى رحمته) اقتباس من ﴿أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، [الإسراء: ٥٧]، وقوله: (وتتنفس عن نفوس الخائفين الكروب) اقتباس من ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، [الأنعام: ٦٤]، وقوله: (وبروح محبته تطمئن القلوب وترتاح) اقتباس من ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، [الرعد: ٢٨].

ومن جماليات النظم: تقديم الجار والمجرور في (من خشيته)، فالخشية هي سبب الابتعاد عن المضاجع، وفي (عن نفوس)؛ فالأهم العناية والاهتمام بشأن تلك النفوس، وكأن الكروب لا تملك سلطانًا عليها، وفي (بروح)، تأكيد وتقرير؛ لكون الطمأنينة هي سبب المحبة الإلهية. ثم سوق الاستعارة المكنية في (تتجافى)؛ حيث شبه المضاجع بكائن حي يدافع وينازع الأجساد؛ تجسيدًا لحالة المؤمن القلق تجاه عبادة الله حبًّا، وتنفانيًا، وإخلاصًا. وفي (تتنفس)؛ حيث شبه الكروب بكائن حي يتنفس؛ بجامع الانكشاف والزوال. وفي (ترجى)؛ لإيضاح طريقة عبادة أوليائه المخلصين، فهم يعبدونه بالحبّ تارة، وبالخوف والرجاء أخرى (سعد، ٢٠٢١، ص٨٧). ثم الأفعال المضارعة (تتجافى، ترجى، تتنفس، تطمئن، ترتاح)؛ لتجسد الحركة النفسية والروحية للمؤمن في سلوكه وتصرفه تجاه ذكر الله، في مشاهد حيّة مستمرة متجددة نابضة بالحياة. ومراعاة النظير في (الخشية، رحمته، محبته)، وفي (تتنفس، تطمئن، ترتاح). **والسجع** في (الجنوب، والكروب).

ثانيًا: المقارنات المنطقية، في **(ما طابت الدنيا إلا بذكره ومعرفته، ولا الآخرة إلا بقربه ورؤيته)**، فالاستقامة على طريق السعادة لا يتحقق إلا بامتثال المحبة الإلهية (قولًا، وعملًا، واعتقادًا)، فجمع في العبارة بين قصرين حقيقيين بطريقة النفي والاستثناء؛ ليصوِّر أن التكامل الروحي والمعنوي في الدنيا والآخرة مقصور على تحقّق القرب من الله، والأنس به، والشوق له، فالدنيا والآخرة لا تستطيب إلا بتحقّق الحبّ الإلهي، وفي هذا تجسيدٌ للاتصال الروحي والجسدي بين العبد وربه، وترسيخٌ للحجة العقلية.

ومن دقائق المعاني: اختيار الماضي (طابت) وجعله مشروطًا؛ ليؤكِّد أن لذة الحياة في الدنيا والآخرة مشروطةٌ بلوازم الحب الإلهي، وأولها امتثال الذكر، فكثرة مداومته تُحدث قوة تأثيرية في تحقيق القرب والارتقاء إلى أسمى مقامات الحب، فأحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطبًا بذكره. وإيثار الطباق في (الدنيا، والآخرة)؛ ليشمل كل مراحل الوجود البشري، ويُحرِّض المتلقي نحو الغاية السامية، فذكر الله هو طب الحياة، وصلاح الحال، ومحور النجاة. وتوظيف التقابل الدلالي بين الجملتين يعمق المعنى، ويقنع العقل والوجدان بأن ملاذ الأمر كله في الاقتران بالله.

ثالثًا: القياس الشرطي، في **(فلو احتجب عن أهل الجنة لاستغاث أهل الجنة في الجنة كما يستغيث أهل النار في النار وأعلنوا بالصياح)**، فالفاء الرابطة بين المعنيين تُعلن أن غياب الأنس، والشوق، والقرب من الله ينقص لذة الحياة، ويُذهب سعادة المرء، ولو كان من أهل الجنة، فالغاية العظمى ليست هي الجنة فحسب، بل في الاقتراب من الله والأنس بوجوده، وحرف (لو) يُثير التفكير والتأمل في الآثار الأليمة، والندم الشديد المترتب على غياب القرب من الله. ودلالة الماضي (احتجب) تُصوّر مدى الفراغ الروحي، والغربة النفسية التي يحققها البعد عن الله، وهذا مما يقوي الجانب العقلي والوجداني، ويُعزز

الاقناع بأن السعادة مرتبطة بوجود الذات الإلهية، ومن لطائف المعنى ودقائقه مجيء الماضي (لاستغاث) في الحديث عن أهل الجنة، والمضارع (يستغيث) في الحديث عن أهل النار، وهذا غاية الظرف واللطف.

رابعًا: القياس التمثيلي: في صورة التشبيه **(لاستغاث أهل الجنة في الجنة كما يستغيث أهل النار في النار وأعلنوا بالصياح)**، والذي يصور مقدار الألم والحرقة؛ حيث شبه الهيئة الحاصلة من حال أهل الجنة عند احتجاب الله عنهم، وما ينتابهم من غياب الأمن والاطمئنان، وفقدان الراحة والسكينة، وسط تخبط، وضياع، وحرمان؛ بالهيئة الحاصلة من حال أهل النار وهم في النار، يغشاهم الخوف، ويحيط بهم الترقب، ينادون ويصرحون خلف الجدران، ولكن هيهات! والمعنى: لو احتجب الله عن أهل الجنة لاستغاثوا كأهل النار، والغاية أن يوقظ في النفس خشية الله، ويحفز المتلقي لما فيه صلاحها، فلا بد للعقل أن يتدبر ويعمل، وللنفس أن تخشع وتستشعر، وقوله: (وأعلنوا بالصياح) حالة سمعية مؤثرة تزيد من قوة الحدث، وتكشف مدى الحرقة والألم عند فقد النعمة، فهم في ندم شديد، وحاجة ماسة إلى ربهم، لا يجدون مجيبًا لهم إلا هو. والباء في (بالصياح) تدل على أن طلب العون والاستغاثة ملازمٌ لهم ملتصق بهم. والمقابلة في (أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار) تسهم في زيادة الترغيب في الجنة، والتخويف من النار.

خامسًا: النتائج العقلية المستندة إلى مقدمات واقعية، في **(كل** قلوب تألهت سواه **فهي** فاسدة **ليس لها** صلاح، **وكل** صدور خلت من هيبته **فهي** ضيقة **ليس لها** انشراح، **وكل** نفوس أعرضت عن ذكره **فهي** مظلمة الأرجاء والنواح)، بنيت العبارة على ثلاث جمل متوالية ذات تقابل دلالي، بدأت بالتكرار (فكل ... فهي ... ليس لها ...) بنمط تعبيري يساعد في توجه الفكر الإنساني نحو الانتباه إلى النتائج السلبية عند انتزاع الحب الإلهي وخلو الذات البشرية منه، فخاطب العقل والمنطق بأسلوب حجاجي إقناعي، يُعلم المتلقي أن البعد عن الله لا يترك أثرًا باطنًا فحسب، بل يتبعه فساد، وضيق، وظلمة لا يمكن إصلاحها بغير قربه سبحانه وتعالى، ولو فكروا العباد لرجعوا، ولكن القلوب غافلة، ومنشأ غفلتها ضعف الوازع الديني، والتمادي في ارتكاب المعاصي.

وقد قامت العبارات الثلاث على طريقة القصر الإضافي عن طريق تقديم ما حقه التأخير (كل قلوب، كل صدور، كل نفوس)، فقصر الصلاح على القلوب المؤمنة بالله، ثم أردف القصر بما يؤكد المعنى ويرسخه في ذهن المتلقي، قائلًا: (فهي فاسدة ليس لها صلاح)، كاستنتاج منطقي، وإثبات بالنتيجة الصارمة بأن فساد القلوب التي عبدت غير الله يستلزم انعدام صلاحها مطلقًا، والخراب الروحي ناجم عن بعدها. ثم عاد في الجملة الثانية فقصر ضيق الصدور، وغياب الخشية والتقوى الإلهية، في البعد عن الله، ثم رسّخ المعنى قائلًا: (فهي ضيقة ليس لها انشراح)؛ ليزيد في إبراز المعاناة النفسية الناجمة عن الانقطاع عن الله، وفي الجملة الثالثة حصر الإعراض في البعد عن ذكر الله، وما يلازمه من ظلمة محققة لا انسلاخ منها، (فهي مظلمة الأرجاء والنواح)، خالية تمامًا من النور، فالظلام ظلام روحي يحيط حياتهم، فختم

العبارة الثالثة بما هو كالمنارة بلاغة وتأثيرًا، فكان في ظن المتلقي أن تجيء الجملة كأخواتها، فيقول: (ليس لها براح)؛ ولكنه خالف ظن المتلقي، وأحدث في نفسه المفاجأة، ووقع الكلام موقعه الأمثل الأخص به، فقال: (فهي مظلمة الأرجاء والنواح)، فحافظ على السجع، وأعطى لها شكلًا مغايرًا، فأساس النفوس أن تبقى نيّرة صافية كما هي مجبولة عليها في الفطرة السليمة، وانطفاء نور النفس يجعلها ظلمة عجيبة، فجاء بالتعريف والإضافة فقال: (مظلمة الأرجاء والنواح)، فعطف على الجمع جمع آخر، وما هذا إلا مزيد عناية بالمراد، وتأكيد بيان على بيان.

ومن محاسن القول: اختيار الربط بـ(الفاء) في (فكل ... فهي)؛ نتيجة (الاحتجاب)، ودلالة الأفعال الماضية (تألهت، خلت، أعرضت) على ثبوت فساد كل قلب غير موحد، وتأكيد الأثر السلبي من فراغ القلوب من المهابة لله، وتأكيد شمولية الخسارة الناجمة عن الإعراض. فاستدل بقول الحق: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، [النور: ٣٥]، بعد سياق ذكر فساد القلوب وعدم صلاحها، وضيق الصدور وعدم انشراحها، وانسدال الظلمة والوحشة؛ ليُبين أن القرب من الله يُوجب الحب والألفة، ويُذهب ضيق الصدور، فالله نور السماوات والأرض، "مظهرهما بإيجادهما، وإيجاد أهلهما، وهاديهم بالتنوير بالعلم الجاعل صاحبه بهدايته إلى الصراط المستقيم، كالماشي في نور الشمس لا يضع شيئًا في غير موضعه، كما أن الماشي في النور لا يضع رجلًا في غير موضعها اللائق بها، ولا شك أن النور هو ما تظهر به الأشياء وتنكشف، فهو سبحانه مظهرهما" (البقاعي، ١٩٩٢، ١٣/٢٧١).

وفي ختام الاستهلال (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣ وما بعدها) يشير إلى تكامل الحمد والشكر، وتجددهما في استمرار بلا فتور أو انقطاع، فالأرواح تتوق نحوه تعالى استنشاقًا لنسيمه العذب، ومن دقائق المعنى حسن توظيف الاستعارة التبعية في دلالة الفعل (نشر)، فكنى بقوله: (أحمده ونشر ذكره كلما نُشر فاح) بدوام الاستطابة المتجددة في كل حين، وتقديم الجار والمجرور (على الشاكرين) تخصيص يفيد أن الشكر سبب في دوام زيادة الفضل. والطباق في (الدنيا، الآخرة)، (السماوات، الأرض)، (فاسدة، صلاح)، (ضيقة، انشراح)، (لانت، القاسية)، (الغدو، الرواح). ومراعاة النظير في (مفتاح، باب، دار)، وفي (مفصح، موضح، يُعرف، يخوف، يذكر)، وفي (فاسدة، ضيقة، مظلمة)؛ ليصور جوانب حياة المعرضين عن ذكر الله. والجناس المماثل في (نشر ذكره، نشر فاح)، فالأولى بمعنى: عبير ذكره، والثانية بمعنى: امتداده وانتشاره، وفي (مفتاح لباب، فما للجنة سواها مفتاح)، واللاحق في (استمدها، استعدها)، وهذا لونٌ من الانسجام والتناغم؛ لما في الألفاظ من تشابه في الوزن والصوت، فالجناس نغم موسيقي انسيابي يجذب الآذان، ويذهب الملل، والسجع في (وفاح، ولاح، والأفراح، والأرواح، وترتاح، بالصياح، وصلاح، وانشراح، والنواح، ومصباح، وفاح، والرواح، والسلاح، ومفتاح، وإفصاح، والإيضاح، والنواح، والصلاح، وانشراح، وللفلاح، والفلاح)، فالتناغم والترنم يبث في النص طمأنينة وسكينة وانشراحًا؛ حيث مد الصوت في (الألف والحاء)، وإطالة النفس يجعل الكلمات محملة بالانفعال الذي يوحي بتمام (الرجاء والخشية) وما يتعلق بهما من سكينة النفوس، ففي "جانب الخوف تقشعر الجلود فقط، وفي جانب الرجاء تلين الجلود

والقلوب معًا؛ لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف، ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح" (الرازي، ١٩٩٩، ٤٤٨/٢٦).

المطلب الثاني: التخلص

ينبغي على الكاتب أن يُحْسِن الانتقال من التحميد والتصلية إلى محور الخطاب وغرضه المقصود بكلِّ دقة، ولطافة، وإحكام؛ حيث تتلاحم الأجزاء وتتصل، وقد أُفرغت إفراغًا واحدًا، وسُبكت سبكًا واحدًا، وهذه من عادات العرب وطرائقها في صناعة الكلام (الجاحظ، ١٩٩٨، ص١٨)، وابن رجب متمسك بطرائق العربية في إحكام بناء النص أيما إحكام، فحسن التخلص (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣ وما بعدها)، تهيئة لتلّقي الأمر الأهم، ومعرفة الغاية الأسمى من إيجاد الخلق، وما يترتب على (الخلق والإيجاد) من مقتضيات فصَّل ذكرها وبينها، فأثبت بالدليل القاطع أن المعنى حول العبادة يتمحور في بيان أصولها الثلاثة: الخوف، والرجاء، والمحبة، مستدلًّا بقول الحق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، [الذرايات: ٥٦]، فالإذعان لله بالعبادة يستلزم العلم والمعرفة به؛ ليُقبل العباد على الطاعة إقبال محبة وإخلاص وإفراد، "وإنما يُعْبَد الله سبحانه بعد العلم به ومعرفته" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٥)، فكل مظاهر عظمته وقدرته هي دليلٌ عليه سبحانه.

ومن دقائق المعنى: التسلسل المنطقي في ترتيب الأغراض والمقاصد؛ حيث الانتقال إلى بيان منهج الفرق في الالتزام بتلك الأصول، كبدع المرجئة، وأهل الإباحة والحلول؛ حيث التشدد في واحدة، والإعراض عن الأخرى، معلقًا بقوله: "وإنما هو مجرد دعاوي، قد تُشرف بأصحابها على مهاوي" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٧). منتقلًا بعدها إلى صدق البرهنة بالدليل على الضرر العظيم، والخطر الجسيم وراء الحديث عن المحبة ومقدماتها ومبادئها؛ يقول: "وما أحسن قول ذي النون، وقد ذكر عنده الكلام في المحبة، فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٧)، "والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٧)، ثم انتقل إلى بيان المنهج الذي سار عليه؛ حيث جمع ما ورد في الكتاب والسنة، وكلام أعيان سلف الأمة في محبة الله تعالى، وعلاماتها، وطرقها، ولوازمها، ومقتضياتها، وأبان عما تضمّنه الكتاب من أبواب، وحصرها في اثني عشر بابًا (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٩)، ذكرها مفصلة، راعى في ترتيبها التقديم التصاعدي لبناء المعرفة، ونَسَجَها بلغة بيانية ذات إيقاع نغمي موسيقي، فجاء الطباق في (الدنيا، والآخرة)، والسجع في (القدوس، النفوس)، وفي (قلوبهم، مطلوبهم)، وفي (الأقدار، يختار)، وفي (العارفين، الخائفين)، والجناس اللاحق في (أهمها، وأتمها)، وفي (الأسباب، الأرباب)، والناقص في (المحبين، المبين). ثم ذكر سبب تسمية الكتاب قائلًا: "وسميته استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، فإن قلوب الأحباب تشتاق باستنشاق نسيم الاقتراب، وأن الله جل وعلا يقول للجنة: "طيبي لأهلك ليزدادوا طيبًا" (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٣٠)، فالغاية من سياق هذه الأحاديث – على الرغم من ضعفها – إثبات ما يتطلبه المقام، ويقتضيه السياق من جذب انتباه

المتلقي وإقناعه بما تحويه الجنة من سكينة، وراحة، وألفة، ولطف، ومرجع هذا الحسن امتثال محبة الله تعالى، فإن في (طيبي لأهلك) كناية عن النعيم المقيم الذي به سرور النفس، فما هذا إلا أثر من آثار الجنة وجزء من الرائحة الزكية الممتدة.

فهذا الانتقال التدريجي جعل من المقدمة نصًّا متماسكًا مترابطًا، ذا إيقاع نغمي يتلاءم مع المعنى، ويتمثل ذلك في عدة فنون بديعية، منها: الطباق بين: (الجن، والأنس)، و(السماوات، والأرض)، و(الدنيا، والآخرة). ومراعاة النظير في (الخشية، والرجاء، المحبة)؛ لكونها مستلزمات العبادة، و(الأموال، والأولاد)؛ لأنهما زينة الدنيا، و(الاستدلال، الاستشهاد)؛ لأنها من الطرق الصحيحة لإثبات الحجة، و(الكبر، والفجور، الغرور)؛ لكونها من مفسدات العبادة، و(أشعار، حكايات، صور)؛ لكونها من مظاهر الأدب. وصحة التقسيم؛ حيث استيفاء أقسام العبادة: (الخوف، والأمل، والمحبة). والجناس التام في (خلق، الخلق)، فالأولى بمعنى: الإيجاد من عدم، والثانية بمعنى: العباد، والناقص في (حبة، محبة)، وفي (الأمة، الأئمة)، واللاحق في (يعيد، بعيد)، وفي (جدا، عدا). والسجع في (محبته، معرفته، عظمته)، وفي (حبة، الأئمة)، وفي (الصور، الخطر، الغرور، زور)، وفي (عظيم، جسيم)، وهذه الملامح البلاغية تُظهر عناية ابن رجب باختيار ألفاظه، ودقة معانيه.

المطلب الثالث: الانتهاء

يُعدّ حسن الانتهاء من أهمّ عناصر بناء المقدمة؛ إذ ينبغي على الكاتب أن يجتهد في نظمه على نسق مخصوص، فيجعله عذب اللفظ، حسن السّبك، صحيح المعنى، مشعِرًا بالتمام والختام، فالاستهلال والتخلص يستمدان ارتباطهما العضوي والمعنوي من خاتمة النص؛ بوصفها الركن الأساس الذي يعمل على شدّ أوصال النص، وتقوية لحمته، بلغة فنية، معبِّرة، محكمة، وبعاطفة عذبة، فياضة، منبثقة من أعماق الكاتب، فهو يريد أن يوجز ما يريده، ويرمي إلى مبتغاه، ويكون حثيثًا في تحقيق التأثير؛ لجذب انتباه السامع والإصغاء إليه، ومن عادة العرب أن تعطف آخر الكلام على أوله، وأن يكون آخره مرتبطًا مع أوله (القيرواني، ١٩٨١، ص٣٢٩). **وامتاز الانتهاء عند ابن رجب بالآتي:**

أولًا: تحقيق الترابط والانسجام، وتوفر الملائمة بين أجزاء المقدمة بكل دقةٍ وإحكام، ومن دلائل هذا: الإحالة إلى ما يحويه العنوان من دلائل معنوية تمثلت في الاستشهاد بمجموعة من الأشعار الأدبية (ابن رجب، ١٩٩٠، ص٢٣ وما بعدها)، فالخاتمة الشعرية التي أغلق بها ابن رجب مقدمته تُبين مقدار الصلة بين العنوان والاستهلال، فكأنها كاشفة، شارحة، حققت المعنى بأسلوب ليس فيه تكلف أو تعقيد، بل قوة، وجزالة، ورصانة (ضيف، ١٩٩٩، ص٢٥).

والشواهد في مجملها تحكي تجربة شعورية صادقة، تصور مشاهد من حرقة الحب، وحرمان مباهج الوصل، وما يتبعها من حزن دفين ألجأ الشاعر إلى أن يقول: (ألا إن تذكر الأحبة تسبيح)، (وبعض الشح في المرء ممدوح)، فالتسلسل في نظم الأفكار بطريقة بديعة، فتارة (يصدع قلبي أن يهب هبوبها)،

وتارة (تحت فحمة الليل جمرة كلما هب عليه نسيم الليل التهب)، وأخرى: (أشرفت بقلبي من نار الغرام مصابيح) على سبيل التشخيص والتجسيد لفعل الوجد والشوق كلما مرت الريح وهبت، وفي هذه الشواهد الشعرية يبرز الجانب الانفعالي عند الشاعر، فتتجلى كل قواه الخارجية وتكامل لتشكل تجربته الشعرية (فيصل، ١٩٨٣، ص٣٢٦)؛ لذا وظف ألفاظ كـ:(يصدع، جمرة، التهب، نار الغرام، تقطع الفواد)، فمن فرط المحبة وشدتها، وحرّ نار الغرام، وقوة وطأته؛ تصدّع فواده وتقطع، فلا سبيل للنجاة إلا طريقًا واحدًا لا غيره؛ فهوى كلّ نفس حيث حلّ حبيبها!

ويلحظ تكثيف المفردات ذات المعنى الدلالي المقترن بالعنوان والاستهلال، فالأفعال في (تمر، يصدع، حلّ، هبّ، تذكرني، مرّ، ازداد، هبّت، أراني، أظلم، أشرقت، أصلي، كنت، يشحّ، يخامر، لاح، تقطّع)، والأسماء في (الصبا، بالحبيب، هوى، النسيم، شوق، الريح، الغرام، الأحبة، فؤادي)، فالماضي يدل على أن ما يعيشه الشاعر ويعانيه هو أمرٌ محتومٌ حاصلٌ لا حيلة له فيه، وليس له حيال ذلك إلا أن يصفه ويصوره، والمضارع أداة مساعدة مُعينة على تكثيف صورة الألم التي هي مقصد الشاعر، وكأنه يريك صورة حاله وقد لحق به ما لحق من شدة الوجد، وحرارة الفقد، وحرقة الشوق، وولع الهوى، وهذا التنوع من ثبوت الماضي وتجدد المضارع يوحي بفهم ابن رجب في انتقائه لمختاراته بعناية دون أن يكون ذلك اختيارًا عبثًا، بل هو محض قصدٍ ودراية.

ثانيًا: التعالق العاطفي بين المتلقي والنص بطريقة إقناعية تأثيرية؛ حيث ظهرت براعة ابن رجب في تحقيق التوازن بين أقسام المقدمة؛ حيث لم يطل فيمل السامعون، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد.

ثالثًا: إصابة المعنى، والبراعة في إحكامه وإغلاقه، والإيجاز في تأديته؛ بملكة بلاغية، وقدرة لغوية؛ تكشف أصالة ابن رجب وتمكنّه.

الخاتمة

- تبيّن أن العنوان والمقدمة يؤديان دورًا مباشرًا في تحقيق الوظيفة الإبلاغية للخطاب عبر دعم عمليتَي الفهم والتلقي وما يرتبط بهما من تأثير واستمالة.
- أظهر التحليل أنّ ابن رجب وظّف البنية البلاغية في صياغة العنوان والمقدمة بطريقة تكشف الدلالات وتدعم تماسك النص وانسجامه.
- دلّت النتائج على أن ابن رجب قدّم الفن البلاغي بوصفه أداة لبناء المعنى وتوصيله، بعيدًا عن التكلّف، وبما يعزّز فعالية الأسلوب في تحقيق مقاصد الخطاب.
- إن إحداث التوازن بين الخوف والرجاء والمحبة من لوازم الحياة الإيمانية؛ حيث حسن المراقبة، وصدق العمل؛ ليصل العابد إلى درجة التفاني في الإقبال على المعبود إقبال رضوان وتسليم.
- اشتمل العنوان والمقدمة على أهم ركائز الحب الإلهي؛ حثًّا على امتثال أصول العبادة، فـ(عبادة القلب)

في المعرفة الصحيحة بالله، و(عبادة النفس) في ملازمة الصبر، و(عبادة الجوارح) في الانقياد التام.

- **من أهم ما يميز المقدمة:**

- ثبوت الطابع الإقناعي في خطاب ابن رجب وارتباطه بوظيفة الإصلاح والتوجيه.
- انتظام بناء النص من خلال إحكام الاستهلال والتخلّص والانتهاء.
- فعالية الحجاج عبر توظيف الأقيسة والبراهين وما يرافقها من أثر نفسي موجّه للمتلقي.
- تكثيف الأساليب والصور بما يعمّق حركة المعنى ويبرز مقاصد المحبة الإلهية.
- حضور المعاني الروحية في صور حسية مجسّدة تكشف عن أثر المحبة الإلهية.
- تنشيط استجابة المتلقي وتعزيز توجهه نحو القرب الإلهي عبر بيان لغوي موظّف بدقة.

أهم التوصيات:

- توسيع دراسة بلاغة العتبات النصية في مؤلفات ابن رجب الأخرى للكشف عن اتساق نسقه البلاغي.
- تطبيق المنهج البلاغي التداولي على نصوص وعظية أخرى لقياس حضور الوظائف الحجاجية في عتباتها.
- تحليل البنى الأسلوبية للعناوين التراثية لرصد أثرها في توجيه القراءة وبناء المعنى.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم.

ابن الأثير، ضياء الدين. (١٤٢٠). *المثل السائر*. المكتبة العصرية. بيروت.

الأشعري، علي. (١٤١٣). *رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب*. دار البحث العلمي. المدينة المنورة.

الآمدي، الحسن. (١٩٩٤). *الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري*. ط٤. دار المعارف.

البغدادي، أحمد. (١٩٨٩). *الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع*. مكتبة المعارف. الرياض.

البقاعي، إبراهيم. (١٩٩٢). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة.

بلال، عبد الرازق. (٢٠٠٠). *مدخل إلى عتبات النص*. أفريقيا الشرق.

بلعابد، عبد الحق. (٢٠٠٨). *عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص*. الدار العربية للعلوم.

الجاحظ، عمرو. (١٩٩٨). *البيان والتبيين*. مكتبة الخانجي. القاهرة.

الجاحظ، عمرو. (٢٠٠٣). *الحيوان*. دار الكتب العلمية. بيروت.

الجحمري، عبد الفتاح. (١٩٩٦). *عتبات النص: البنية والدلالة*. الدار البيضاء.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٩٢). *دلائل الإعجاز*. ط٣. دار المدني. جدة.

الجرجاني، عبد القاهر. (٢٠٠٦). *أسرار البلاغة*. دار المدني. جدة.

حسين، خالد. (٢٠٠٧). *في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية*. دار التكوين.

الرازي، محمد. (١٩٩٩). *مفاتيح الغيب*. ط٣. دار إحياء التراث. بيروت.

الرافعي، مصطفى. (٢٠٠٥). *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*. ط٨. دار الكتاب العربي. بيروت.

ابن رجب، عبد الرحمن. (١٩٩٠). *استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس*. طنطا، دار الصحابة للتراث.

ابن رجب، عبد الرحمن. (٢٠٠١). *جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم*. ط٦. مؤسسة الرسالة. بيروت.

ابن رجب، عبد الرحمن. (٢٠٠١). *روائع التفسير*. دار العاصمة. السعودية.

ابن رجب، عبد الرحمن. (٢٠٠٣). *مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي*. ط٢. دار الفاروق.

ابن رجب، عبد الرحمن. (٢٠٠٥). *ذيل طبقات الحنابلة*. مكتبة العبيكان. الرياض.

رحيم، عبد القادر. (٢٠١٠). *علم العنوانة*. دار التكوين. سوريا.

سعد، محمود. (١٩٧٩). *المعنى القرآني معالم الطريق إلى فهمه في سياق السورة، رؤية منهجية، ومقاربة تأويلية*. مكتبة وهبة.

سعد، محمود. (٢٠٢١). *سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة، دراسة منهجية تأويلية ناقدة*. ط٢. مكتبة وهبة.

سلوى، مصطفى. (٢٠٠٣). *عتبات النص: المفهوم والموقعية والوظائف*. جدة.

سيبويه، عمرو. (١٩٦٦). *الكتاب*. دار العلم. القاهرة.

ضيف، شوقي. (١٩٩٩). *الحب العذري عند العرب*. الدار المصرية. بيروت.

ابن عبد البر، يوسف. (١٩٩٤). *جامع بيان العلم وفضله*. دار ابن الجوزي. السعودية.

عبد المطلب، محمد. (١٩٩٤). *البلاغة والأسلوبية*. ط٢. الشركة المصرية للنشر. القاهرة.

العسقلاني، أحمد. (١٩٦٩). *إنباء الغمر بأبناء العمر*. لجنة إحياء التراث. مصر.

العسقلاني، أحمد. (١٩٦٩). *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*. ط٣. الهند. مجلس دائرة المعارف العثمانية.

العسكري، الحسن. (١٩٩٨). *الصناعتين*. المكتبة العنصرية. بيروت.

ابن العماد، عبد الحي. (١٩٨٥). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. دار ابن كثير. بيروت.

ابن فارس، أحمد. (١٩٧٩). *مقاييس اللغة*. دار الفكر.

فيصل، شكري. (١٩٨٣). *تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة*. ط٦. دار القلم. بيروت.

القاسمي، محمد. (١٩٩٤). *العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم*. ط٣. مؤسسة الرسالة. بيروت.

القرطاجني، حازم. (١٩٨٦). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. ط٣. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

قطوس، بسام. (٢٠٠١). *سيمياء العنوان*. وزارة الثقافة. الأردن.

القلقشندي، أحمد. (١٩٢٢). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. دار الكتب المصرية. القاهرة.

القيرواني، الحسن. (١٩٨١م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. ط٥. دار الجبل.

مطلوب، أحمد. (١٩٨٣). *معجم المصطلحات البلاغية وتطورها*. بغداد. المجمع العلمي العراقي.

المغراوي، محمد. (٢٠٠٧). *موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية*. المكتبة الإسلامية. مصر.

مفتاح، محمد. (١٩٩٠). *دينامية النص: تنظير وإنجاز*. ط٢. المركز الثقافي. بيروت.

ابن منظور، جمال الدين. (١٩٩٣). *لسان العرب*. ط٣. دار صادر. بيروت.

المراجع العربية بالحروف اللاتينية

al-Qur'ān al-Karīm.

Ibn al-Athīr, Ḍiyā' al-Dīn. (1420). *al-mathal al-sā'ir*. al-Maktabah al-'Aṣrīyah. Bayrūt.

al-Ash'arī, 'Alī. (1413). *Risālat ilá ahl al-Thaghr bi-Bāb al-abwāb*. Dār al-Baḥth al-'Ilmī. al-Madīnah al-Munawwarah.

al-Āmidī, al-Ḥasan. (1994). *al-Muwāzanah bayna shi'r Abī Tammām wa-al-Buḥturī*. ṭ4. Dār al-Ma'ārif.

al-Baghdādī, Aḥmad. (1989). *al-Jāmi' li-akhlāq al-Rāwī wa-ādāb al-sāmi'*. Maktabat al-Ma'ārif. al-Riyāḍ.

al-Biqā'ī, Ibrāhīm. (1992). *naẓm al-Durar fī tanāsub al-āyāt wa-al-suwar*. Dār al-Kitāb al-Islāmī. al-Qāhirah.

Bilāl, 'Abd al-Rāziq. (2000). *madkhal ilá 'Atabāt al-naṣṣ*. Afrīqiyā al-Sharq.

Bil'ābid, 'Abd al-Ḥaqq. (2008). *'Atabāt Jīrār jynyt min al-naṣṣ ilá almnāṣ*. al-Dār al-'Arabīyah lil-'Ulūm.

al-Jāḥiẓ, 'Amr. (1998). *al-Bayān wa-al-tabyīn*. Maktabat al-Khānjī. al-Qāhirah.

al-Jāḥiẓ, 'Amr. (2003). *al-ḥayawān*. Dār al-Kutub al-'Ilmīyah. Bayrūt.

Aljḥmry, 'Abd al-Fattāḥ. (1996). *'Atabāt al-naṣṣ: al-binyah wa-al-dalālah*. al-Dār al-Bayḍā'.

al-Jurjānī, 'Abd al-Qāhir. (1992). *Dalā'il al-i'jāz*. ṭ3. Dār al-madanī. Jiddah.

al-Jurjānī, 'Abd al-Qāhir. (2006). *Asrār al-balāghah*. Dār al-madanī. Jiddah.

Ḥusayn, Khālid. (2007). *fī Naẓarīyat al-'Unwān, Mughāmarat ta'wīlīyah fī Shu'ūn al-'Atabah al-naṣṣīyah*. Dār al-Takwīn.

al-Rāzī, Muḥammad. (1999). *Mafātīḥ al-ghayb*. ṭ3. Dār Iḥyā' al-Turāth. Bayrūt.

al-Rāfi'ī, Muṣṭafá. (2005). *I'jāz al-Qur'ān wa-al-balāghah al-Nabawīyah*. ṭ8. Dār al-Kitāb al-'Arabī. Bayrūt.

Ibn Rajab, 'Abd al-Raḥmān. (1990). *astnshāq Nasīm al-uns min Nafaḥāt Riyāḍ al-Quds*. Ṭanṭā, Dār al-ṣaḥābah lil-Turāth.

Ibn Rajab, 'Abd al-Raḥmān. (2001). *Jāmi' al-'Ulūm wa-al-Ḥikam fī sharḥ khamsīn ḥdythan min Jawāmi' al-Kalim*. ṭ6. Mu'assasat al-Risālah. Bayrūt

Ibn Rajab, 'Abd al-Raḥmān. (2001). *Rawā'i' al-tafsīr*. Dār al-'Āṣimah. al-Sa'ūdīyah.

Ibn Rajab, 'Abd al-Raḥmān. (2003). *Majmū' Rasā'il Ibn Rajab al-Ḥanbalī*. ṭ2. Dār al-Fārūq.

Ibn Rajab, 'Abd al-Raḥmān. (2005). *Dhayl Ṭabaqāt al-Ḥanābilah*. Maktabat al-'Ubaykān. al-Riyāḍ.

Raḥīm, 'Abd al-Qādir. (2010). *'ilm al'nwānh*. Dār al-Takwīn. Sūriyā.

Sa'd, Maḥmūd. (1979). *al-ma'ná al-Qur'ānī Ma'ālim al-ṭarīq ilá fahimahu fī siyāq al-sūrah, ru'yah manhajīyah, wa-muqārabah ta'wīlīyah*. Maktabat Wahbah.

Sa'd, Maḥmūd. (2021). *Subul istinbāṭ al-ma'ānī min al-Qur'ān wa-al-sunnah, dirāsah manhajīyah ta'wīlīyah nāqidah*. ṭ2. Maktabat Wahbah.

Salwá, Muṣṭafá. (2003). *‘Atabāt al-naṣṣ: al-mafhūm wa-al-mawqi‘īyah wa-al-waẓā’if*. Jiddah.

Sībawayh, ‘Amr. (1966). *al-Kitāb*. Dār al-‘Ilm. al-Qāhirah.

Ḍayf, Shawqī. (1999). *al-ḥubb al-‘udhrī ‘inda al-‘Arab*. al-Dār al-Miṣrīyah. Bayrūt.

Ibn ‘Abd al-Barr, Yūsuf. (1994). *Jāmi‘ bayān al-‘Ilm wa-faḍlihi*. Dār Ibn al-Jawzī. al-Sa‘ūdīyah.

‘Abd al-Muṭṭalib, Muḥammad. (1994). *al-balāghah wa-al-uslūbīyah*. ṭ2. al-Sharikah al-Miṣrīyah lil-Nashr. al-Qāhirah.

al-‘Asqalānī, Aḥmad. (1969). *Inbā’ alghmr b’bnā’ al-‘umr*. Lajnat Iḥyā’ al-Turāth. mṣr

al-‘Asqalānī, Aḥmad. (1969). *al-Durar alkāmnh fī a‘yān al-mi’ah al-thāminah*. ṭ3. al-Hind. Majlis Dā’irat al-Ma‘ārif al-‘Uthmānīyah.

al-‘Askarī, al-Ḥasan. (1998). *al-ṣinā‘atayn*. al-Maktabah al-‘unṣurīyah. Bayrūt.

Ibn al-‘Imād, ‘Abd al-Ḥayy. (1985). *Shadharāt al-dhahab fī Akhbār min dhahab*. Dār Ibn Kathīr. Bayrūt.

Ibn Fāris, Aḥmad. (1979). *Maqāyīs al-lughah*. Dār al-Fikr.

Fayṣal, Shukrī. (1983). *Taṭawwur al-ghazal bayna al-Jāhilīyah wa-al-Islām min Imri’ al-Qays ilá Ibn Abī Rabī‘ah*. ṭ6. Dār al-Qalam. Bayrūt.

al-Qāsimī, Muḥammad. (1994). *al-‘Awāṣim wa-al-qawāṣim fī al-dhabb ‘an sanat Abī al-Qāsim*. ṭ3. Mu’assasat al-Risālah. Bayrūt.

al-Qarṭājannī, Ḥāzim. (1986). *Minhāj al-bulaghā’ wa-sirāj al-Udabā’*. ṭ3. Dār al-Gharb al-Islāmī. Bayrūt.

Qaṭṭūs, Bassām. (2001). *Sīmiyā’ al-‘Unwān*. Wizārat al-Thaqāfah. al-Urdun.

al-Qalqashandī, Aḥmad. (1922). *Ṣubḥ al-A‘shá fī ṣinā‘at al-inshā’*. Dār al-Kutub al-Miṣrīyah. al-Qāhirah.

al-Qayrawānī, al-Ḥasan. (1981). *al-‘Umdah fī Maḥāsin al-shi‘r wa-ādābuh*. ṭ5. Dār al-Jabal.

Maṭlūb, Aḥmad. (1983). *Mu‘jam al-muṣṭalaḥāt al-balāghīyah wa-taṭawwuruhā*. Baghdād. al-Majma‘ al-‘Ilmī al-‘Irāqī.

al-Maghrāwī, Muḥammad. (2007). *Mawsū‘at Mawāqif al-Salaf fī al-‘aqīdah wa-al-manhaj wa-al-tarbiyah*. al-Maktabah al-Islāmīyah. Miṣr.

Miftāḥ, Muḥammad. (1990). *Dīnāmīyat al-naṣṣ: tanẓīr w’njār*. ṭ2. al-Markaz al-Thaqāfī. Bayrūt.

Ibn manẓūr, Jamāl al-Dīn. (1993). *Lisān al-‘Arab*. ṭ3. Dār Ṣādir. Bayrūt.

مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (٣٤)، ع (١)، ص ص: ٣٤٩ – ٣٧٣ (٢٠٢٦م)
DOI: 10.4197/Art.34-1.12

The Rhetoric of Paratextuals in the book entitled"*Estinshāq Nasīm Al-Uns*" by *Ibn Rajab al-Hanbali* (795H): An Analytical Study of the Title and Introduction

Amina bint Saud bin Khishan Al-Qurashi

Associate Professor of Rhetoric and Criticism, Department of Arabic Language
Faculty of Arts and Humanities, University of Al-Baha, Al-Baha, Saudi Arabia

aalqurashy@bu.edu.sa

Abstract: The topic of textual thresholds is concerned with studying the linguistic and intellectual aspects of Ibn Rajab in the book (Istinshāq Nasīm al-Uns) through an investigation of his linguistic and scholarly formation. His scholarly legacy warrants rigorous academic study, particularly regarding the semantic aspects of his title construction and introduction composition. This discourse establishes textual dimensions, and constructs communicative functions between recipients. Objectives: elucidating the communicative functions of rhetorical devices and their role in constructing imagery and conveying meanings; revealing the artistic features of the title and introduction and their role in achieving the discourse's intended purposes. The study has adopted a rhetorical methodology, directive values, and psychological reactions, while uncovering their contextual role and impact on the recipient. Findings indicate the artistic nature of the title and introduction does not obscure the discourse's purposes and objectives; rather, it contributes to achieving the communicative function through comprehension and clarification, along with their associated elements of reception, influence, and persuasion. Ibn Rajab, through his command of rhetorical principles. This represents a methodology worthy of examination and scholarly investigation, as his style possesses numerous merits deserving of analysis, where rhetoric serves as a source of influence and a means of effective communication and acceptance.

Keywords: Rhetoric of textual thresholds, Ibn Rajab, Astnshāq Nasīm Al-Uns, analytical study.